الباب الثالث

فى المسجد

« الشعلة من الشرارة »
بوشين

نحن الآن فى المسجد الجامع ، وإن شئت فقل جامعة الكوفة ، مسجد بنى فى أعلى مكان من المدينة ليسع أربعين ألفاً وبنيت له ظلة تبلغ مائتى ذراع من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة . مال ميزان النهار ، وأخذت الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة ، يدب عقرباها إلى يوم الساعة ، تحدد مواقيت الناس ، فيفدون للصلاة ويتطهرون بالضوء يرحضون أطرافهم ويغسلون وجوههم ، وينتعشون بعد ما عانوا فى سبيل المعاش إذ ينتقلون من الدنيا إلى حضرة الخالق فى ركعات معدودات ، هنالك تسمع زجلا للناس قد ألفوه بعد كل صلاة . إذ يأوون إلى ركن أو يلتفون حول واحدة من أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل فى خصوماتهم واستفتاء قضاتهم :

هنالك حلقات عدة على القرب وعلى البعد : : هذه حلقة مسعر بن كدام للقرآن والحديث ، وتلك لا بن شبرمة يقضى ويفتى ، وتلك لمحمد بن عبد الرحمن ابن أبى ليلى قاضى الكوفة ، وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعاً . . يكاد المسجد لا يخلو من درس ، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات فى المسجد الجامع .

وحتى فاتحة القرن الميلادى الحالى كانت لجامعات فى العالم الإسلامى هى المساجد الجامعة ، ففى الحرم النبوى كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفى الحرم المكى كان مجلس ابن عباس إلى جوار الكعبة أكرم المجالس ، أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم فى واد واحد : وفى البصرة وفى الكوفة والفسطاط ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التى خلع عليها الإسلام غلالات الحضارة ، كانت الفصول الدراسية هى حلقات الدرس فى صحون الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للعزاء فتشتغل مجالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء فى المسائل الفقهية والأدبية والقصصية وما إليها .

ولم يعرف نظام إنشاء المدارس لتدريس العلم خاصة إلا فى سنة ٢٨٣هـ فى بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفى سنة ٤٠٠ أنشئت مدرسة نيسابور ، وتلتها مدارس قليلة لم تتسع لطلاب العلم جميعاً ، وعلى هذا ظلت المساجد بيوتاً للعلم كما هى بيوت الله .

كانت إلى جوار تلك الحلق فى جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبى حنيفة النعمان ، لايقبل إليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث ، أو من داره ، أو من أسفاره ، أى من صميم الدنيا .

فى هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبى سليمان إلى أن وافته المنية فى سنة ١٢٠ للهجرة ، وعامر بن شراحيل الشعبى حتى اختاره الله إلى جواره سنة ١٠٤ ، ومن قبل ذلك جلس إبراهيم النخعى إلى سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد النخعى إلى نفس العام ، وجلس عبيد ابن عمر حتى سنة ٩٢ ، ومن قبلهم جلس علقمة النخعى عم الأسود وخال إبراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتى الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ ، كما جلس شريح بن الحارث الكندى نحو ثلثى قرن يقضى ويفقه الناس إلى أن مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأجدع يفتى الناس ويفتى شريحاً حتى سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعاً جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود إلى أخريات أيامه ، ثم ودع مجلسه إلى المدينة حيث صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى فى سنة ٣٢ .

لم تكن حلقة أبى حنيفة كسائر الحلق بل هى كانت تثير المشكلات فى الداخل والخارج ، وتأتى كل يوم بجديد . يتجلى فيها طابع التطهر فى الجسم وفى العقل معاً ، فلا يستعملون الماء إذا استعمله سواهم ، ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبى حنيفة للوضوء حياضاً ذات صنابير ، فنسبت هذه الصنابير إليه (الحنفيات) لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير للماء . والماء المستعمل غير طهور عند أبى حنيفة .

كان سفيان الثورى يفتى بجواز الوضوء بماء قد توضأ به الغير ، فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول إنه ماء مستعمل ، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لا يتوضأ به لأنه ماء مستعمل . فرجع فيه إلى قول أبى حنيفة .

(فالحنفية) التى تفتحها وتقفلها صباح مساء هى الذكرى المتجددة لهذه الحلقة المتأنقة فى طهارتها لا ترد الماء إلا صفواً من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء .

وإذا كان من المسلمات فى العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تنطق به عدادات المياه ، وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالا للماء ، وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هى كالصلة بين النظافة والماء ، فأى ذوق كان لأبى حنيفة من ألف ومائتى عام ! بل أى طهارة ، وأى حضارة .

وإذ كانت النظافة من الإيمان فمن كأبى حنيفة فى نظافته وفى إيمانه ! .

من أجل النظافة يقول أبو حنيفة إن السواك من سنن الدين ، وينصح الحنفية بالاستياك عند كل صلاة ، ووضوء ، وكل ما يغير الفم وعند اليقظة من النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود ليناً لا يابساً ، وأن يغسله المستاك قبل استعماله ، وألايستاك وهو مضطجع .

ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » .

رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثياباً رثة فأهاب بصاحب الثوب ليبقى بعد أن ينفرط عقد الحضار ، حتى إذا صار الرجل وحده قال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم قال : « خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك » قال الرجل إنى لست أحتاج إليها . وأنا موسر . قال أبو حنيفة : « أما بلغك الحديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) فينبغى لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك) ! .

ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل إنها لتصور لنا الصورة الحقيقية لهذا السيد السمح وتلك الحلقة الجديرة بأن تسمى حلقة النظافة ، كما هى ولا مراء حلقة الثقافة :

بلى: إن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : والناس كخالق الناس — سبحانه — يحبون أن يروا أثر النعمة على من حباهم نعماءه . والثياب الرثة لا تطمئن ولا تسر ، وما لا يقبل شكله لا ينظر فى موضوعه ، فالنفس تخضع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع ، وأول ما يبدهك به الرجل منظره ومظهره . ففيم يفرض المتهاونون فى مظهرهم على الناس أن يفتحوا أعينهم على القذى !

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد لخادمه : احمل معنا ألف دينار فإنى أريد أن أمر بالأصمعى فإذا حدثنى وأضحكنى فضع الكيس فى حجره ، ثم صار إليه فحدثه الأصمعى بكل شىء فلم يضحك . فقال له صاحب كان معه : إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس من عادتك رد شىء قد أخرجته من بيت مالك : قال جعفر : قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم : ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدفعة ورأيت حبه (الجرة الضخمة) مكدراً وعليه برنكان (كساء أسود) منجرد وتحته مصلى وسخ ، وكل ما عنده رث ، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه ، فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه !

• • •

فرغ الشيخ من صلواته وتسبيحاته ، واحتبى بطيلسانه واستند إلى المحراب ، مشرق الديباجة طلق المحيا فى بزته التى عهدناها وأقبل إلى الناس فحياهم ، وإذا كان راجعاً من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله ، وإذا لم يك قافلا من سفره فهو بين ظهرانيهم يسهم فى أمورهم ويتعهدهم ويواسيهم ، فإذا شرع فى الكلام انجفل الناس إليه مخلفين حلقاتهم ، يتقصفون حوله صفوفاً صفوفاً ، فى زحمة لا تسمح للفتى الذى سيصير فى الغداة إماماً وبطلا (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلساً إلا فى الصف الرابع أو الخامس ،

أما فى الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيل الأول ، الزملاء القدماء : إسماعيل بن حماد ، وأبا بكر النهشلى ، وأبا بردة الضبى ، ومحمد بن جابر الحنفى يجلس معهم بين الفنية والفنية أساتذة الحلق المجاورة ، مسعر بن كدام — آية آية الكوفة فى ورعه وحفظه وزهده — والحسن بن عمارة — أستاذ الحلقة القريبة — يجلسان مع أترابهما إلى ذلك الذى لا ترب له . .

وهؤلاء فى الصفوف الأخرى . . أسماء لها جرس بديع فى الأذن : زفر ابن الهذيل ، كان أبوه والى البصرة وكانت أمه فارسية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لسانه . . ويعقوب — فى من العامة سيعرف فيما بعد (بأبى يوسف) — والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكرى للكوفة عبد الله بن مسعود ، عالم فى اللغة والأدب والشعر والحديث ، وهذا أسد بن عمرو البجلى ، والوليد بن أبان : ثم هذا صف آخر ، فثمة وجوه جديدة : داود الطائى الذى سيرقى إلى الذروة فى العلم ثم يغرق كتبه فى الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاماً ، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من ربه ، وفضيل بن عياض ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، ويوسف بن خالد السمتى ، ووكيع بن الجراح ، ومالك بن مغول ، وحفص بن غياث ، وعافية الأودى ، وعلى بن مسهر ، والأخوان مندل وحبان ، ويحيى بن زكريا ، وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة ابن حمزة . وستأتيك أنباؤهم بعد حين . .

وأخيراً وفى نهاية العمر ، جاء فتى سمين وضاء المحيا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته بثلاثين ألفاً ، سينفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ، أبوا أن يقبلوه إلا أن يحفظ القرآن ، فغاب وعاد يقول إنى حفظته فى سبعة أيام ! لم يكد يجلس إلى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقها الشيخ إلى جوار ربه ، ذلك محمد بن الحسن الشيبانى . . .

وهؤلاء وهؤلاء : . يناهزون الأربعين عدداً : حلقة إسلامية بحق ، فيها الموالى والعرب ، وفيها أبناء الولاة وأبناء الشعب ، وفيها المخاطون لأب وأم مختلفين عروبة وولاء .

بدأ الدرس وتطارح المتدارسون المسائل ، فإذا كان فى الحلقة غريب حياه وبدأ به فقال له: هات ما عندك : ويتناظرون فلا يستبد بآرائه ، بل يطرح مسألة مسألة يسمعهم فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول : « لا يحل لمن يفتى من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت » ، ويقول : « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » : يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحراراً مع غيره ، فلن يتعلموا الحرية فى التفكير إلا إذا مارسوها فى التعبير : ولن يتعملوها مع الناس إلا إذا تعلموها مع الأستاذ ، وهو عندهم خير الناس :

ومن ألف عام قبل أبى حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون : أستاذى صديقى والحق صديقى فإذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة :

روى شاهد عيان : كنت عند أبى حنيفة وهو فى مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة ، فسكت ثم ألقى عليه أيضاً فأجاب فقال : أخطأت يا أبا حنيفة : فقلت لمن حوله من أصحابه : سبحان الله لا تعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه ! يجىء شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت إلىّ أبو حنيفة وقال « دعهم فإنى قد عودتهم هذا من نفسى » :

بلى ، وأية غضاضة على العالم أن يخطىء أو يخطّأ ؟ أليس علىّ رضى الله عنه يقول : « كنت لا أرى بيع أم الولد فى زمن عمر : : واليوم فقد رأيت ذلك » ! وأبدى ابن عباس رأيه فى مسألة من مسائل المواريث بعدم جوازها (العول) وقيل له : إنك كنت تراها فى زمن عمر قال : « هبته وكان رجلا مهيبا : : » :

ذلك صنيع العالم يتراجع أمام حجة العالم ، حتى إذا بدت له معايبها عاد يصدع برأيه من جديد ، والذى يرجع عن خطأ الأمس إلى صواب اليوم لا يصنعه إلا لأنه اليوم خير منه أمس ! ورجوع عمر نفسه عن

خطئه كان مضرب الأمثال : ففيم يشفق الشاهد على أبي حنيفة إذ يقول له الغلام مرة بعد مرة أخطأت !

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيراً أخف ففيم ذلك أيضاً ؟ والأشياء لا تسمى بغير أسمائها إلا فى معارض النفاق : والنفاق ليس من دروس أبي حنيفة . وإذا لم تسم الأشياء بأسمائها فى حلقات الفقه وحلبات الجدال فأين تسمى بأسمائها الأشياء ؟ إن الخطأ ليس إلا الخطأ : يسميه كذلك القائل الحر للسامح الحر ، وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته وافتعال يضيع الزمان سدى :

قال رجل لعمر بن الخطاب : « اتق الله » : فأنكر ذلك بعض الحاضرين فقال عمـــر : « دعه فيلقلها لى ، نعم ما قال ، لا خـــير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها » .

إن العظيم الحق لا تضيره كلمة الحق ، وإنه ليدرك أن عظمته إلى جوار عظمة الخالق كجناح بعوضة إلى الخلق العظيم الكواكب . فلعل الحق أن يجيئه من أى ذرة من ذرات هذا الوجود أو أى رجل مهما يكن من الخمول والفدامة . وهو لن يستطيع أداء رسالته إلا إذا وثق من قدرة الله على أن يصلح الدنيا على يد سواه :

قيل لأبي حنيفة : لا يزال هذا المصر بخير ما أبقاك الله فيه فأجاب :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن البلاء تفردى بالسؤدد

وفى أواخر القرن الرابع دعا أهل القيروان عـــلىّ بن خلف المعـــافرى المعروف بابن القابسى ، ليجلس فيهم معلماً فأبى ، فهدموا عليه بابه إذ أغلقه دونهم فلما رأى ذلك خرج ينشد :

لعمر أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفى الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم

ثم قال : وأنا والله ذلك الهشيم . . وبكى وأبكى .

فإذا نبت من المناظر كلمة ، فما أحلم أبي حنيفة ! وإذا تدهور صاحب السخيمة إلى الكلم الجارح فهو يقذف الهرم ، وينطح الطود الأشم . قال له الرجل يا مبتدع يا زنديق : فقال : غفر الله لك ، الله يعلم منى خلاف ما قلت ، وأنى ما عدلت به أحداً مذ عرفته : . قال الرجل : اجعلنى فى حل : قال الإمام : « كل من قال فى شيئاً من أهل الجهل فهو فى حل . . وكل من قال فى شيئاً من أهل العلم فهو فى حرج ، فإن غيبة العلماء تبقى شيئاً بعدهم » .

ولقد يطول البحث فى المسألة الواحدة أياماً وليالى أو شهراً أو أكثر من شهر . فيندأبون على الدرس ويكبون على التخريج : حتى إذا قتلوها بحثاً أثبتها أبو يوسف بعد أن يتولاها الفحول بالقبول . أو التفت الشيخ إلى من يكتب منهم فقال له : « ضعها فى الباب الفلانى » . ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ما تعلموه فإذا أحكموه أخذوا فى غيره ، وإذا استعصت مسألة أو غلوا فيها وتوفروا عليها حتى إذا قطعوا فيها برأى تهللوا بشراً وصاحوا صياح الفرج قائلين الله أكبر ! الله أكبر !

ابتدءوا فى مسألة الحيض فخاضوا فيها ثلاثة أيام متتابعة بالغداة والعشى ، فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعاً لله ، وكان ذلك إيذانا بأن مسألتهم قد خرجت .

وإذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال : « اللهم لا تؤاخذنى » ، ثم يفتى .

وفى ذات ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله فى يده ، فكلمه زفر فى مسألة ، فتجاريا يتقايسان ، حتى نودى لصلاة الفجر وهما قائمان ، فرجعا إلى داخل المسجد : ورجعا إلى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى استقرت المسألة على قول أبي حنيفة :

تـــرى لو لم يكن هـــؤلاء القـــوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا ينقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة فى شرع الله إنما هى سجدة من السجدات لذاته وتسبيحة بآلائه !

لقد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله — جل شأن الله — يولون وجوههم شطره فى المحراب أو فى حلقة أبى حنيفة .

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال : من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ، ولم يرسخ فى قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له فى علمه ورسخ فى قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه » .

أليس هو القائل لنابغتهم أبى يوسف : « . . . وإن بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم ، فإنك إذا أعرضت كانت معيشتك ضنكاً . » على ما قال الله تعالى : (ومَن أعْرَض عَن ذِكْرِى فَإن لَه مَعِيشَةً ضَنْكاً . » بلى لقد علمهم أن العلم توفيق وإلهام وعبادة إذ كانت تشكل عليه المشكلة فيقول : ما هذا إلا لذنب جنيته ، فيستغفر الله ، وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة . . . .

أجل وهو الذى طالما قال لهم : « إن لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا » .

وهذا الذى يقوله الشيخ لتلاميذه هو الذى قاله رسول الله من قبل : « أفضل العبادة الفقه » . خرج صلى الله عليه وسلم فإذا فى المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله . . فقال : « كلا المجلسين إلى خير ، أما هؤلاء فيدعون الله تعالى ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل . . هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت » ثم قعد معهم .

كان الطلاب فى الحلقة خشعاً قلوبهم ، عالقة أبصارهم بالشيخ ، يديرون المسائل فى عقولهم وألسنتهم ، فى حين تكاد آذانهم تشرب من عباراته ، وهو يتكلم كأن ليس فى المجلس أحـــد وكله فقهاء ورؤساء ولكنهم سكوت خاضعو الرقاب .

قال زفر : « إذا تكلم خيل إليك أن ملكاً يلقنه ما يقول » ، فمن فاته من

الدرس فكرة ، أو ضاع من وقته فترة ، فقد نصف عمره ، إن لم يكن كل عمره : مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عنه .

ضن أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليستبقي لنفسه ساعة من أبي حنيفة : ! فأية حكمة تلك التي كان ينهل منها القوم ، وأية نعمى هذه التي كانوا يؤثرونها . : ! إن المرء ليعجز عن فهم ذلك من أبي يوسف إلا إذا ذكر موقفاً آخر له عندما اجتمعت له أسباب المجد فكان أصح تقديراً إذ كان أبعد زماناً ومكاناً : أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه ، حتى إذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين .

في تلك الأيام سئل عما يوده فقال « وددت أن لي مجلساً من أبي حنيفة بنصف ما أملك » قيل ، ولم تتمنى هذا ! قال : « في النفس حزازات كنت أسأله عنها » :

حقاً ، كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون . روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين : شيخنا ليس حاضراً ونكره أن نتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدئ بالكلام .

وقيل لأبي يوسف وهو قاضي القضاة : هل وددت إلى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال « وددت إلى زهد مسعر بن كدام وفقه أبي حنيفة » . قال الرشيد : ما تمناه أكثر من الخلافة : ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء ، وأين الخلفاء من الأنبياء :

تلك الرهبنة العلمية ورثها تلاميذ أبي حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم وللدين معاً كمثل أبي جعفر النسفي ، يبيت ليلته مهموماً من ضيق البال ، وكثرة العيال ، فيقع في خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويقوم ويرقص في داره ويقول أين الملوك ! وأبناء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث فيخبرها فتعجب : : !

جاءت القزويني زوجته وهو يلقي درسه فأسرت إليه خبر وفاة ولد له

شاب كان يحضر معه فى كل يوم ولم يحضر معه فى ذلك اليوم ، فأمرها بتجهيزه ولم يذكر للحاضرين شيئاً ، حتى فرغ من الدرس على عادته فقال : إن محمداً دعى فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر !

ومن قبل أبى حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقى دروسه وبين سامعيه أورليوس أحد عظماء روما ، فدخل جندى برسالة من الإمبراطور إلى أورليوس وجزع الحاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لكن العظيم الرومانى لم يفض الكتاب إلى أن انتهت المحاضرة .

أولئك رجال العلم خُشَّع فى محرابه ، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس ، فليس كل أستاذ أبا حنيفة أو بلوتارك ، والساعات التى تتيحها العناية الإلهية للناس إذ يجلسون إليهما ليست مما يسرف الفتى اللقن فى إنفاقه .

وفى بعض الأحايين يطول الجدال فى الحلقة ، ويحتدم وتتعالى الأصوات بلا ضابط ، حتى قال فيهم الشاعر :

قوم إذا اجتمعوا صاحوا كأنهمو ثعالب صيحت بين النواويس

فإذا تكلم خفضت الأصوات وتفتحت الآذان والأذهان ، فللحلقة قانون غير مدون ولكنه فى القلوب . إنه « إذا تكلم الشيخ فسمعاً وطاعة » . لقد جاءوا إليه وهم أحرص الناس على لقياه وسماعه ، عالمين أن الفقه أرفع العلوم وأولاها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له إن فى هذا المسجد حلقة ينظرون فى الفقه . فسأل : « هل لهم رأس ؟ قالوا : لا . قال : لا يفقه هؤلاء أبداً » . . .

بلى : كيف يفهم الناس بلا رؤوس ؟ . . وكيف تنتظم الحلقات بلا رئيس ؟

سمعهم مسعر بن كدام فى صخبهم ثم بصر بهم سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال : « إن رجلا تسكن عنده الأصوات لعظيم الشأن فى الإسلام . » لكن الأستاذ ينشرح صدره لجهارة تلاميذه وجلبتهم ،

فإذا نبههم الناس أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغى فى المسجد قال : « دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا » !!

إنهم لم يكونوا تلاميذ إلا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ ، فلسوف تراهم الدنيا غداً فحولا دونهم كل الفحول والأفذاذ . لو شهدتهم حول أساطين ، المسجد الجامع لحسبتهم فى مؤتمر دائم لا يكاد ينفض .

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام ملياً ثم قال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين . . ثم قرب إلى المسجد فقال لأصحابه : يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه مع ما هو فيه قد أقام عشر ليال متواليات شهدت الليلة التى مضت منها . .

كان محمد بن أبى ليلى قاضى الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد ، وكان كثير الشكاة من تلك الحلقة التى تشرح أقضيته ، لكنه كان يتلمس فى الخفاء رضاء الشيخ عن تلك الأقضية ، وإذا قدم ابن إسحق صاحب المغازى إلى الكوفة جاراه فى المسائل . أما مسعر بن كدام فيترك تلاميذه ويجلس فى حلقة أبى حنيفة ، فيقول له تلاميذه : نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس إلى أهل البدع ؟ فيجيب : « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علماً » .

وإذا سأل سائل عن العلم فإن للعلم مكانة ، وللمفتى وقاراً لازماً لاستجماع الفكر يمتنع معه أن يفتى فى عرض الطريق . قال لسائله مرة : « لا تسألنى عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو نائم أو متكئ فإن هذه الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجال » .

وللمرأة احترامها وحياطتها إذا جاءت إلى الحلقة تستفتيه ، فإنه ينهض إليها من وراء السارية فيفتيها ، ثم يعود إلى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع وبالفتوى ويقول عن الحجاب الذى ضربه بينها وبينهم : « إنما غرضى أن أحصنها من أحداق الرجال » .

وإذا قام من الحلقة عاد مريضاً أو شيع جنازة . بل إنه ليحمل سرير الميت

من تلاميذه أو أصدقائه — آية وفاء وتحية وداع — أما دار ابن حريث فالريح تجرى فيها رخاء وعلى يد الله .

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح ، فالرجل الذى يقسم حياته بين يدى الله فى داره طول الليل لاينقص منه لنومه إلا قليلا ، وبين يديه أكثر النهار فى بيته يؤدى فريضة العلم لعباده ، والذى يخرج عن ماله الضخم فى سبيل العلم وفى سبيل الله ، إنما هو رجل قد طبعه الجد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التى يحملها للناس . ولهذا لم ير مستجمعًا ضحكًا قط ، وإن كان يبتسم لما يقهقه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه . . والقهقهة ليست على كل حال من خلائق السادة .

لقد ضحك مرة فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يومًا ! . . كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم : عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ هـ ، والذى كان يطبع الجد قسماته وحركاته حتى ليظنه الرائى قد أقبل من دفن والديه ، وإذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تخلقا إلا له ، ناظره أبو حنيفة فى فتوته ، فظفر به فازدهاه الظفر بأنه أفحم الزعيم العظيم فضحك ، فرشقه عمرو بقاصمة الظهر قال : يافتى تتكلم فى مسألة من الشرع وتضحك ! والله لا أكلمك بعد هذا أبدًا . قال أبو حنيفة فانقطع الكلام بينى وبينه رحمه الله وقال إنه نادم على ما فرط منه أبداً . . وهكذا عاقبه الله على ما ازدهاه وما انساق إليه من المغالاة .

وإنه ليلقى درسه فى المسجد ذات يوم فإذا بحية تسقط فى حجره وهرب الناس ، فما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه ، واضطرب الدرس وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فرارًا وملئوا منها رعبًا . أما هو ، والحية قد سقطت فى حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستبقيًا عنانه ، كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد : « فلا والله ما تخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير » . ثم قال : (لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ لَنَا) وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيدًا عنه » .

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس . لكأنه إذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد فى المحراب بين يدى الله .

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شانه الارتياع للبغتات والفجاءات ، لكن

سموه على طيش الفجاءة قد زاده كرامة ، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ فى وقاره وضعًا مسرحيًا ولا مدرسيًا بل استمر فى درسه كأن لم يقع ما يريب .

اقتحم الخوارج مسجد الكوفة فى إحدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة وأصحابه جلوس فقال لأصحابه : لا تبرحوا . فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم : ما أنتم ؟ قال الأستاذ من فوره : « نحن مستجيرون » ؟ قال أمير المغيرين دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرءوا عليهم القرآن . فقرءوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم .

وبهذه البديهة المسعفة ، سلمت المدرسة الحنفية من خبطة معسفة ، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعملوا فيهم السيوف ، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصبة لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصاير الفقه .

وهكذا جرت على لسان أبى حنيفة تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال ، وجرت فى خلد أمير الخوارج نسمة من نسمات التفتح الروحى ، وتذاكر المتحاوران فى صمت قوله تعالى : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ وسما الخوارج عن سفك الدماء ، وسما أبو حنيفة فى التعبير عن أن يقول : إنهم : « مشركون مستجيرون » كما قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء إذ هم الخوارج برأسه فعصم منهم رأسه ونفسه . لكن أباحنيفة يقف وما فى الموت شك لواقف ، فيصيب فى العبارة والإشارة ، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات .

كان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام ، وامتد الوقار من ذاته إلى عباراته ، فإذا حلف صادقًا فى عرض كلامه تصدق بدرهم ! ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين دينارًا .

قال جعفر بن ربيع : « أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتًا ، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى وسمعت له دويا وجهارة فى الكلام » . وليس يرجى غير ذلك من رجل وهب نفسه للعلم خمسين حجة كاملة أو يزيد ، يقرأ القرآن فى كل وقت ، ويبرز فى حلقات المتكلمين فى صدر حياته حتى إذ بلغ عنفوانها قضى عليه القدر أن ينهض

برسالة من الرسالات التى تدين لها الحضارة الإسلامية بأسباب البقاء .

* * *

والجهارة والدرى ، والسلاسة والتدفق ، وحسن الإلقاء — كانت وما زالت وسيلة المحدث النابغة إلى القلوب ، مثلما هى جواز المرور للكاتب والعالم والخطيب . وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد ، من « ديموستين » إلى « شيشرون » إلى « ابن أبى طالب » إلى « ميرابو » ، وفى « أثينا » و « روما » و« بيزنطة » ، وفى أسواق « عكاظ » و « مجنة » و« ذى المجاز » و « مكة » و « المدينة » و « العراق » و « مصر » ، وفى قصور الأمراء ، وفى رمال الصحراء ، وفى محافل باريس ولندن وفى كل مكان

وسيبقى ذلك شأن البيان فى كل زمان ، والناس دائماً هم الناس وكلما غير الزمان وجهه أظهر للدنيا وجهه نفسه باعتباره وجهاً جديداً .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء. فالعلم لا ينبع من القلب إلا عند استجمام فضله واستجماع عفوه .

سئل الشافعى عن مسألة فسكت فقيل له : ألا تجيب رحمك الله ؟ قال : « لا ، حتى أدرى أين الفضل ، فى سكوتى أم فى الجواب » .

من أجل ذلك ، كان مجلس الشيخ مهيب الجانب « ورأيه لا يدفع بالهوينا » كما يقول الشافعى : « ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته » كما يقول مالك . كانت كلماته قطرات من البلور المذاب تهب عليها نفحة من منطق الرسول الذى قالت عنه أم معبد : « كأن منطقه خرزات ، نظم يتحدرن » .

والحضانة الفكرية لا يتيسر لها الجو الصالح إلا بالخلو إلى النفس بالسكوت ، أو كما قال ابن المقفع : « ربما كانت البلاغة بالاستماع » . والذى يتحدث حديثاً صالحاً لا يتحدث إلا لداع ، فالحديث كالماء يتخذ لون الوعاء فإذا ألقيت به فى غير مكانه أو فى غير أرانه أو أدليت به إلى ضمير جامد أو شعور بارد ، كان لا لون له ولا طعم فيه وهو السلسل العذب ، بل إنه ليغص به الشارب وتقتحمه عين الرائى .

فإذا أدلى أبو حنيفة بذات نفسه فهو يدلى بها حيث يجمل الإدلاء ، ويجدر الإفتاء ، ويصدع برأيه حيث تعترك الآراء ، وعندئذ يسيل كالسيل إذا اجتاح جنبات الوادى .

قال : « لا تحدث بفقهك من لا يشتهيه فتؤذى جليسك . ومن قطع عليك حديثًا فلا تعده فإنه قليل المحبة للعلم » . وقال فى إحدى خطبه : « إن الكلام كثير ومحكمه يسير ، وإن الكلام لاينتهى حتى ينتهى عنه ، وإن خير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبى يوسف وهو يمرضه النصيحة « من جاءك يستفتيك فى المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله ولا تضم إليه غيره فإنه يتشوش عليه جواب سؤاله . . ومن فاقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك » . . .

على هذا النحو ظلت حلقة أبى حنيفة ثلاثين عامًا تعمل فى مؤتمرها الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها ، يتلقون المسألة فيقسمونها أقسامًا ويتولون كل قسم أيامًا وليالى بالتحليل والتعليل ، حتى إذا قعدوا قواعدها راحوا يفترضون الفروض التى قد تقع فى المستقبل وتتداولها أدمغتهم كأنها تتناولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسة ، فتخرج أحكامها على أيديهم كالجنين الحى . وانتشرت موجة الافتراض والتفريع فإن مالا تكفى فيه النصوص تنفع فيه الأصول . ولئن صح قول ابن عجلان : « إذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مفاصله » فإن حلقة الكوفة كانت تعرف هذه القاعدة ولا تحتاج إليها ومع ذلك سلمت مفاصلها ، ذلك بأن الأسئلة لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعضاؤها كثر ، ولم يكن الجواب يصدر فور البديهة وإنما يصدر بعد البحث فى المؤتمر ، ولم يك وليد الفكرة وحدها وإنما كانت تطبق عليه قوانين وضعوها . فكيف لا توجد القوانين الموضوعة ، والعقول الدائبة على البحث ، حلولا للأشياء . . إن الضعف الإنسانى يجبره طول المران والإيمان والتعاون والإخلاص ، ولقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيّنن العلم : وإنهم لفاعلون .

ذكر ذاكر أمام أبى حنيفة قول الشعبى : « لا أدرى نصف العلم » فرشقه بكلمة لاذعة قال : « فليقلها مرتين ليكون له كل العلم » .

وجرى حديث هذه الدروس فى شبه الجزيرة وفى العالم الإسلامى كافة ، وشاركت الخمس والخمسون حجة التى يمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة فى إذاعة أنبائها ، فالشيخ فى مكة والمدينة فى كل عام تقريباً يناظر ابن جريج فقيه مكة، والأوزاعى فقيه الشام ، والليث بن سعد فقيه الفسطاط، بل الليث يعمل على الخروج للحج إذا خرج أبو حنيفة ليناظره . . والشيخ يجلس فى المسجد الحرام يفتى أهل المشرق والمغرب ، وكبار الناس حضور ، لا يرى أصبر منه على الطواف والصلاة والفتيا بمكة ، وهو كل الليل والنهار فى طلب الآخرة حتى لقد شوهد عشر ليال لا يهدأ الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعليم والناس يزدحمون حوله فى المسجد الحرام من كل الآفاق ، فيجيبهم ويفتيهم كأن المسائل فى كمه يخرجها فيناولها إياهم فى أدب يأسر القلوب ! .

كان يفتى يوماً فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة — الذى قيل إنهم رووا له ٤٠٠ كتاب — ففطن أبو حنيفة له فقام وقال : « يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت مارآنى الله أقعد وأنت قائم» قال له : « اجلس يا أباحنيفة فعلى هذا أدركت آبائى » .

وفى مكة احتاج الوالى إلى شرط يكتب له فقال لابن شبرمة وابن أبى ليلى : اكتب . فكان إذا كتب هذا شيئاً أفسده هذا حتى إذا قدم أبو حنيفة على الأمير قال الأمير : احتجنا إلى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفة : قل لكاتبك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبى ليلى فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدرا أن يقولا شيئاً ، وقال أحدهما للآخر بعد أن خرجا : أما ترى هذا الحائك جاء فى ساعة فكتبه . قال له صاحبه : « لا تقل الحائك فإن الحائك عندى من لا يقدر أن يكتب هذا القدر ويسترو ح إلى سب العلماء » .

فإذا ذهب إلى المدينة لقى زعيمها الجليل مالك بن أنس . وكان أبو حنيفة لايكلم أحداً إلا قطعه ولكنه يرفق إذ يكلم مالكاً : كانا يتدارسان بعد العشاء فى مسجد الرسول حتى إذا وقف أحدهما على القول الذى قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة . ولا يزالان كذلك حتى يصليا الغداة فى مجلسهما !

قصدا يومًا إلى الحرم النبوى معًا ومالك قابض على يده يمشيان ، فلما بلغا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله ، وكان مالك يجلس سفيان الثورى دون المجلس الذى يجلس فيه أبا حنيفة. ولا عجب فإن سفيان كان يقدم أبا حنيفة و يمشى خلفه، و إذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذى يجيب .

ومع ذلك كان أبو حنيفة يرهق مالكًا بحجاجه . قال الإمام الليث : « لقيت مالكًا فى المدينة فقلت له : إنى أراك تمسح العرق عن جبينك . قال : عرقت مع أبى حنيفة . إنه لفقيه يامصرى . ثم لقيت أبا حنيفة فقلت ما أحسن قبول هذا الرجل منك. فقال أبوحنيفة: «ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام»:

ومع ذلك كان مالك يقول : « ما أحلمه » . ولولا حلم أبى حنيفة عليه لما تركه يتفصد عرقًا !

ترى أية لحظات فى تاريخ الإنسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة من سنا الفكر كانت تتبادلها هذه الكواكب فى جوار النجيم الأكبر الذى ما يزال يبعث شعاعه إلى الوجود الإنسانى ! إمام مصر ، وإمام دار الهجرة ، والإمام الأعظم ، فى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم !

فأى رجال . . وأى خيال . .

هكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ فى اتساع الدائرة واشتهار المدرسة .

هذا ربيعة بن عبد الرحمن الذى تفقه به مالك ، والليث بن سعد إمام مصر ، ومالك ، والأوزاعى ، وابن جريج ، وجعفر الصادق ، وابن إسحاق صاحب المغازى ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، والحسن بن عمارة ، وحمزة المقرئ ، والجرجانى عبد الكريم ابن محمد ، وقتادة المحدث ، وحماد بن زيد إمام البصرة ، وأبو مقاتل السمرقندى ، وخارجة بن مصعب إمام سرخس ، والنضر بن محمد ، ومسعر ابن كدام ، وعمر بن ذر ، وعمرو بن عبيد ، هؤلاء الزعماء الفكريون وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الإسلامية بالنور ، وكانت لهم مع

أبي حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواؤهم وآراؤهم بأضواء الكوفة وعلومها بين الحين والحين ، فكانوا يرون فى بريق الشيخ وصفائه بشائر الفجر الطالع أو الفجر الطالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم فى الكوفة أو فى البصرة أو فى مكة أو فى المدينة خلاصات التفكير الإسلامى فى كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية إلى دراساته ، فيلقحها بلقاح جديد ليطبعها بالطابع العالمى الشامل . حتى إذا جادله سعيد بن أبي حجر ذات يوم قال : « يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفاريق من قوم شتى وجدناه عندك جملة » ! .

حقًّا لقد انتهى إليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبحسبك أن تقرأ ما فات من أسماء ، وأن تتصفح ما فى الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا عنهم من الفحول ، لتجتمع لديك القائمة الذهبية بمنابع الفقه الإسلامى وروافده لا تكاد تنقص شيئًا . تلتقى تياراتها فى مدرسة الكوفة منبعًا أو مصبًّا . .

لقد كان زمن الفتوح الفكرية وكان العراق بقعة الكنوز المباركة ، فيها أسلمت دولة بنى أمية روحها ، ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة المفكرين روحاً جديداً أمدها بأسباب الحياة ؟